الأصول التاريخية للغجر في مصر والأقطار العربية

عبادة كحيلة

كلية الآداب، جامعة القاهرة

يعيش في مصر والأقطار العربية المجاورة نحو من مليونين من الغجر، لا يعرف غالبنا من هم؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين يذهبون؟ الأهم لماذا هم غجر، ومع ما وصلت إليه الكتابات الحديثة في علم الغجريات Gypsiology، فما تزال هناك أسئلة أو بالأحرى مشكلات في حاجة إلى إجابات، أو إلى مزيد من الإجابات.

-١-

وأول ما يجبه الباحث في هذا الموضوع هو المعلومات، فنحن لا نستطيع أن نكتب في موضوع ما، إذا لم تتوافر لدينا معلومات عن هذا الموضوع. والحق يقال إن هذه المعلومات على ندرتها أوفر في الغرب منها في الشرق، بحكم أن الهوة بين الغجر والأوربيين كانت - ولا تزال - أوسع من الهوة بين الغجر والشرقيين. فظاهرة التمايز كانت أوضح في الحالة الأولى، وشكلت بالتالي حافزا للكتابة عنهم.

على أية حال فلدينا في الأقطار العربية مسمى عام هو الغجر، وهو المقابل العربي للمسمى الإنجليزي Gypsies، كما إن لدينا مسميات فرعية، منها كاولية وقرج (العراق) نور (بلاد الشام ومصر) حلب (صعيد مصر وشمالي السودان) زطوط (وواحدها زطي) سلطنة عمان).

هناك مسميات أخرى أصغر، وإذا تناولنا مصر كعينة، فلدينا قوم من النور يدعون بالهنجرانية، يدعون الانتساب إلى المجر، وهذا غير صحيح فأصل الكلما أهنكر الفارسية وتعني حدادا، وتجمع أهنكران أي حدادون (شتا ١٩٩٢:١/٢١٦، تغرى بردى ١٩٦٤ - ١٩٧٢:٢/٢٧٠)، والحدادة مهنة أم عند الغجر. وفي مصر وفى غيرها من الأقطار العربية لا يطلق الغجر على أنفسهم مسمى يرتبط بلغتهم، لكنهم يطلقون على غيرهم مسمى خشانة أو (أخشان) وواحدها خشنى، وهو المقابل العربي للكلمة الرومنية Gadze وواحدها Gadzo.

جدير بالذكر أن الغجر أدعوا لدى مقدمهم إلى أوروبا أنهم مصريون، وهو زعم - يتضح بعد - غير صحيح، وربما انتحلوا هذه النسبة لارتباط مصر القوى بأسفار الكتاب المقدس قديمها وجديدها على سواء. ولم تتضح الحقيقة إلا في أخريات القرن الثامن عشر، بفضل شاب مجري يدعى إشتفان فايي Istvan Valyi كان يدرس اللاهوت في جامعة لايدن بهولاندا، وكان هذا الشاب قد التقى بثلاثة طلاب هنود يدرسون معه في الجامعة نفسها، ولا حظ أنهم يتحدثون بلغة تشبه لغة مواطنية من الغجر المجريين، فدون حوالى ألف كلمة من كلامهم، ولدى عوده إلى وطنه، عارضها على هؤلاء الغجر، واكتشف أنهم عرفوا بغير كبير صعوبة تفسير هذه الكلمات The New Hungarian Quarterly 1970:150)

قبل أن ينتهي القرن الثامن عشر صار الأصل الهندي للغجر حقيقة يتفق عليها علماء الغجريات كافة، لكنهم - بعد ذلك - يختلفون في تحديد ذلك الشعب، الذي ينتمي إليه الغجر.

هناك عدة نظريات، أشهرها إنهم ينتمون إلى شعب الجت Jats، وهو شعب لا يزال له حضوره الواضح في دولتي الهند وباكستان، وعرفه العرب في فترة ما قبل الإسلام، وعربوا الاسم إلى زط.

أهم من روج لهذه النظرية هو المستشرق الهولندى الكبير دى خويه De Goeje في كتاب صغير أصدره في سنة ١٩٠٣ بعنوان «هجرات الغجر عبر القارة الآسيوية Les Migrations des Tsiganes à

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 26-27 (2003)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.2003.26-27.16

travers l'Asie واعتمد فيه على مصادر عربية وفارسية. أهمها الشاهنامة للفردوسي شاعر الفارسية الأكبر (ت ١٠٢٠ م).

وجدت هذه النظرية معارضة قوية من بعض العلماء، على أساس أن لغة الغجر المعاصرين في أوروبا - لغة الرومني Romani وإن كانت ذات قرابة بلغة الجت، إلا أنها أقرب إلى المجموعة الوسطى من اللغات الهندية، وتمثلها في العصر الحاضر اللغة الهندية Hindi (Fraser 1995:20, 22, 36).

يترجح لدينا أن المهاجرين من أسلاف الغجر كانوا ينتمون إلى خليط من شعوب هندية أمهما الزط الذين صاروا علما على هؤلاء المهاجرين (Wedeck 1973: 274-276)، وقد استقرت الحال بهؤلاء الهنود الذين ندعوهم منذ الآن بالغجر في الهضبة الإيرانية، ولا سيما الجهات المحاذية لبحر فارس (الخليج العربي)، وذلك في زمان بهرام جور (٤٣٨-٤٢٠) من ملوك الأسرة الساسانية (الفردوسي ١٩٣٢ ٢١٠٥/، الأصفهاني ١٩٢٢-١٩٢١:٣٨) .

في أعقاب الفتوح الإسلامية لدولة الفرس دخل هؤلاء الغجر في الإسلام، وشاركوا في بعض الأحداث الهامة التي مرت بها الدولة الإسلامية الناشئة، كما أن بعضهم هاجر إلى بلاد الشام[1] .

في عهد الخليفة العباسي المأمون (٨١٣-٨٣٣م) قام بعض هؤلاء الغجر بالعيث في إقليم البطيحة الواقع لدى المجرى الأدنى لنهر الفرات، الأمر الذي دفعه - دون جدوى - إلى حربهم، لكن أخاه المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م) نجح فيما لم ينجح فيه سلفه، وأمر بنفي من تبقى منهم إلى الثغور (أي الحدود مع دولة الروم)، حيث أمضوا عشرين سنة إلى ان اغار الروم على الثغر في العام ٨٥٥ م فأسروهم، ولم يعودوا بعد سنوات مسلمين (الطبري ١٩٧٩:٨/٥٨٠- ٥٨١، ٥٩٩ /٩، ٢١١،١١-٨).

عاش الغجر داخل العالم البيزنطي في أرمينية، ما يزيد على المائتي سنة، وهذا يتسق مع التأثير الأرمني القوي في لغتهم، ولدى تقدم الأتراك السلاجقة على حساب الروم في هذا الإقليم، عبرت أعداد كبيرة منهم إلى الأقسام الغربية من الإمبراطورية ومنها إلى بلاد اليونان، وبدأ التأثير اليوناني يجد طريقه إلى لغتهم، بحيث غدت اليونانية هي أكثر اللغات الأجنبية تأثيرا في الرومنية - لغة الغجر - تليها الأرمنية. ثم بدأوا يتسربون من بلاد اليونان إلى سائر أنحاء البلقان، وفي عام ١٤١٧ بدأ اجتياحهم لأواسط أواسط أوروبا وغربيها.

-٢-

لم يكن ما حدث في العام ٢٤١هـ/٨٥٥م نهاية للوجود الغجري في تاريخنا، لأن هؤلاء المنفيين ثم المسبيين كانوا فريقا من الزط، ولم يكونوا الزط كافة، فلا تزال لدينا ثلاثة تجمعات لهم في بلاد الشام وبلاد الأهواز (خوزستان) وبلاد البحرين، فضلا عن زط كانوا يتوافدون بين حين وآخر من بلاد السند، ويشاركون في أحداث سياسية بفارس وكرمان وغيرهما من أقطار إيران[2] . هؤلاء الزط في تجمعاتهم المختلفة، ثم انتشارهم في مجتمعات أخرى بعد ذلك، هم أسلاف الغجر المعاصرين لنا في المشرق.

إذا نحن تتبعنا أخبارهم، نجد الدولة تواصل الإفادة منهم في أمنها، فولى بعضهم منصب صاحب الشرطة في مدينة بغداد في بعض سنوات القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي (الصولي ٢٤٨:١٩٧٥-٢٤٩)، لكننا لا نلاحظ أنها أفادت منهم في مناصب أخرى.

فيما عدا ذلك تتواتر الإشارة إلى أدوار لعبها الزط، أو فريق من الزط في أزمنة الفتنة، مثل فتنة القرامطة الذين زرعوا الفوضى في كل مكان حلوا به (الدواداري ١٩٦١:٦/)٩٠، كما شاركوا في

---

١ راجع هذه التفصيلات في كتابنا «الزط والأصول الأولى لتاريخ الغجر» ١٩٩٤: ٤٩-٦٠

٢ راجع في هذا الشأن ما ورد في كتابنا «الزط»: ٧٥-٨٤، اعتمادا على مصادر متعددة.

بعض القلاقل التي ترتبط بنزاعات على السلطة، داخل الأسرة البويهية الحاكمة في العراق وإيران (ابن مسكويه ١٩٠٤: ٣٧٥،٣٤٨/٤-٣٧٨).

ومن جملة ما عرف عن الزط في هذه المرحل وما تلاها من مراحل، براعتهم في الموسيقى والغناء، حتى أن الخليفة الراضي (٣٢٢هـ/٩٣٤م-٣٢٩هـ/٩٤٠م) كان من المعجبين بغناء «دوذة الزطي الطنبوري»(الصولي ١٩٧٥:١٥٠) كما اشتهروا أيضا بأن كلامهم غير مفهوم، وهذا مؤشر مهم على لغتهم، فيعيب الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ/٩٩٥م) على المتنبي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٠م) قبح مطالعه في بعض الأحيان، ويأتي بنماذج من شعره، ويعلق فيقول: «وهذا كلام الحكل ورطانة الزط» (الثعالبي ١٩٨٣:١/١٨٣).

الأهم هو نفور المجتمع منهم، ونظرته إليهم بازدراء، ورميهم بكل تقيصة. وعندما كانت تتردد في بعض مصادرنا أخبار عن أعراب، يهاجمون قوافل الحاج إلى بيت الله الحرام، يوصفون بأنهم زط وأوباش (ابن القلانسي ١٩٠٨:٣١٠).

وقد تسربت هذه السمعة السيئة إلى كتب الأمثال، فيأتي الميداني (ت ٥١٨هـ)(مجمع الأمثال ١٩٧٨:٣/٢٣٥) بمثل يقول: «لا تعلم الشرطي التفحص ولا الزطي التلصص»، وبعده بسنوات طويلة يأتي شرف بن أسد المصري (ت ٧٣٨هـ)(أمثاله ١٩٨٩:١٧٧) بمثل آخر يقول: «من كلم الزطي على نفسه يخطي».

في فترة يصعب تحديدها، بدأ هذا المصطلح «زط» تختفي تدريجيا من حياتنا، فلا نشاهده فيما توافر لدينا من موسوعات العصر المملوكي، وبدأت تحل محله مصطلحات أخرى، ولا نجد في عصرنا هذا استخداما واضحا لهذا المصطلح بمعناه العرقي - أي غجر - سوى في سلطنة عمان، فيقال زطي، وتجمع زطوطا.

-٣-

في غضون القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، بدأت تظهر في أقطار المشرق جماعات تعرف ببني ساسان أو الساسانيين، ولدينا مادة طيبة عنهم في كتب الأدب، واختصهم كل من بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ)(مقامات الهمذاني ١٩٢٣:١٠٠-١٠٤) والحريري (ت ٥١٧هـ)(شرح المقامات الحريرية ١٣٠٦هـ:٢/٣٣٧-٣٤٣) بمقامة مستقلة. كما اختصهم ابن دانيال الموصلي (ت ٧١١هـ)(خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال ١٩٧٣) ببابة (أي تمثيلية) من باباته الثلاث، ولصفي الدين الحلي قصيدة تدعى بالقاصيدة الساسانية.

ادعى الساسانيون انتماءهم إلى الطبقة الأولى من ملوك فارس، وأن الزمان انحدر بهم، وصاروا في عداد السؤال، ثم إنهم في سؤالهم كانوا يلجئون إلى مختلف الحيل، حتى أن صاحب كشف الظنون (ت ١٠٦٧هـ)(١/٤٥٥-٤٥٦) يتحدث عن علم بذاته، يدعوه «علم الحيل الساسانية».

يتضح لدينا أن بني ساسان هؤلاء مسمى جديد للزط، وفي كتابه عن الفتوة (١٩٥٨:١٧٧) يعرف ابن المعمار (ت ٦٤٢هـ) الزطي فيقول: «هو المتلصص والقطوى الساساني». إذ كان الساسانيون أخلاقا للزط، فهل هم أسلاف للغجر؟.

نستطيع أن نتوصل إلى هذه النتيجة بتحليل القصيدة الساسانية لأبي دلف، وأبو دلف، هو مسعر بن مهلهل الخزرجي الينبوعي (ت حوالى ٣٩٠هـ). رحالة مشهور وكاتب وشاعر ظريف، وواضح أنه لا ينتمي إلى بني ساسان، لكنه خالطهم ووصف أحوالهم، واقتبس مفردات من كلامهم، لا نجدها في معجماتنا العربية. والقصيدة الساسانية قصيدة طويلة، انتخب الثعالبي (ت ٤٢٩هـ) منها مائة وخمسة وتسعين بيتا، ضمنها كتابه «يتيمة الدهر» (٣/٤١٣-٤٣٦) أولها:

جفون دمعها يجري لطول الصد والهجر

تتناول القصيدة الحيل التي كان يلجأ إليها هؤلاء الساسانيون، من أجل أن يحصلوا على العطايا والأموال، فهم يسيرون في الطرقات والأسواق يعلوهم التراب، وقد ارتدوا أسمالا بالية، وحملوا

تعاويذ في أعناقهم، أو وضعوا عصابات على وجوههم، وهم يتعامون أو يدعون المرض أو الجنون، أو أنهم من الزهاد، أو حتى من المجاهدين، وربما ادعوا تعاطي الطب ومداواة المرضى، ومنهم من يعقر نفسه بموسى، أو يزعم أن الروم قطعوا لسانه، أو أنه قطع عليه الطريق وغصب ماله، وقد يقيد نفسه بالسلاسل ثم يفككها، وربما صحب الواحد نساء وصبية يكدي عليهم (أي يتسول عليهم) أو يقرد أو يدبب، أو يطحن النوى والحديد بيديه وأضراسه.

هذه الحيل جميعها قريبة مما يمارسه الغجر في عصرنا في أقطارنا كافة.

وإذا حللنا هذه القصيدة تحليلا لغويا، وضاهينا بين ما ورد فيها من ألفاظ غريبة، وبين ما نجده في لغة الغجر في مصر الآن، راعنا التشابه وأحيانا التماثل بين الاثنتين.

من هذه الألفاظ المشتركة: كيذ: أير. خشني: غير الغجري. جزارة: عين. سمقون: صبي. كده: امرأة. مشمول: خبز[٣] نصل إذن إلى نتيجة هي: الزط ← الساسانيون ← الغجر.

-٤-

ولكن متى بدأ استخدام مسمى غجر ومسميات أخرى كنور وحلب؟

يلوح لنا أن «غجر» مسمى حديث نسبيا، لأن الغين والجيم لا يجتمعان متتاليين في كلمة عربية واحدة. كما إن هذه الكلمة - وإن صارت دارجة اليوم - لا نشاهدها في الكتب التي تعود إلى العصرين المملوكي والعثماني، وربما كان أحمد فارس الشدياق (ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م) (الشدياق ١٢٨٤هـ:٤٥١/١) هو أول من ورد هذا التعبير من علماء اللغة العرب.

يذهب الأب أنستاس مارى الكرملي (ت ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م)(مجلة المشرق ١٩٠٢:٨٦٧) وهو عالم لغوي عراقي كبير إلى أن هذه الكلمة، تصحيف للكلمة التركية كوجر، وتعني الرحل أو المهاجرين، ويبدو أن تخريجه صحيح، ويتسق مع ما يذكر من أن إحدى جماعات الغجر، وفدت إلى مصر من إقليم البغدان Moldavia، بعد انتصار حققه العثمانيون في هذا الإقليم في أواخر القرن السابع عشر (Sampson 1928:88-90).

نستطيع أن نقرر أنه بعد أن وفدت هذه الكلمة مع وفود هؤلاء المهاجرين، صار لها حضورها على المستوى الشعبي، إلى أن تحقق لها الانتشار، فبدأت تتخذ طريقها إلى الكتب. أما عن النور (وواحدها نوري)، فهي مشتقة من لوريين (وواحدها لوري) أو لوليين (وواحدها لولي)، وتطلق على غجر إيران (شتا ٣٦٣٧/٣). وأول ذكر لهؤلاء النور، ورد في مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري (ت ٧٣٩ هـ) ونقله عنه القلقشندي (ت ٨٢١هـ) في كتابه «صبح الأعشى» (القلقشندي ١٩٨٥: ٣٤٣/١٤).

إذا انتقلنا إلى الحلب، فلا نعلم على وجه التحقيق أصل هذه التسمية، ولا نجد في معاجم اللغة ما يشي بها، وربما دعى هؤلاء الغجر بهذه التسمية، لأنهم انتقلوا إلى مصر من مدينة حلب.

جدير بالذكر أن الجماعات الثلاث: الغجر، النور، الحلب، تعرف جميعها بمسمى عام يجمعها هو غجر، واشتهرت كل واحدة منها - حقا أو باطلا - بنشاط معين تمارسه إلى جانب سائر الأنشطة، فاشتهر الغجر بالرقص، والنور بالسرقة، والحلب بالتسول، وجميعها مهن - إذا جاز التعبير - تدر عائدا ماديا مجزيا.

وإذا كان الغجر في أقطار العالم كافة، مارسوا نسقا معينا من المهن، فإنهم كانوا يكيفون أنفسهم طبقا لظروف كل قطر على حدة: فبينما اشتهروا في البلقان بترقيص الدببة، فإنهم

---

٣ أفدنا في معرفة معاني هذه الألفاظ من المسرد الوارد بمقال الكابتن نيوبولد في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية The Gypsies of Egypt. *JRAS* 16.285-299.

اشتهروا في مصر بترقيص القرود، كما إن من جملة المهن التي تفردت بها الغجريات في مصر كودية الزار وختان البنات.

وثمة مهنة زاولها الغجر في مصر لعدة مئات من السنين إلى أن اختفت في غضون القرن التاسع عشر، هي مهنة المشاعلية أو حملة المشاعل، وترد تفصيلات عنها في بابات ابن دانيال، كما ترد تفصيلات عنها في كتب التاريخ ابتداءا بالنجوم الزاهرة لابن تغرى بردي (ت ٨٧٤ هـ) (ابن تغرى بردي ٤٦/٨) وانتهاء بعجائب الآثار لعبد الرحمن الجبرتي (ت ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م) (الجبرتي ٣/٣٢٦).

تحدد عمل المشاعلي في حراسة الوالي وهداية التائهين في الليل، والتسول وكسح الأفنية، وتجريس المذنبين وضربهم على أقفيتهم، والنداء بأوامر الحاكم ونواهيه، وسلخ جدود الحيوانات، وتنفيذ الحدود في اللصوص وصلبهم أحيانا، وتجارة الحشيش والنيلة[٤].

وعلى ذكر المشاعلي ووظيفته، فقد درجت الحال في الريف المصري، حتى عهد قريب، على أن يعهد بمهمة الخفارة إلى خفير من النور، باعتبار أنهم أعرف باللصوص - ومنهم نور - من غيرهم.

-٥-

وإذا كنا نشاهد في الغرب صداما عنيفا بين عالم الغجر والعالم حولهم، فإننا لا نشاهد مثل هذا الصدام عندنا، والسبب - نذهب - هو أن الهوة لم تكن واسعة بين العالمين في المشرق، حيث توافر قدر من الحراك الاجتماعي المرن، وهو ما لم يتوافر في أوروبا قبل عصر الثورة الصناعية، فضلا عن أن الغجر في خصائصهم الفيزيقية الظاهرة لا يختلفون كثيرا عن جيرانهم من أهل المشرق، وقد حاول بعض الدارسين أن يحددوا هذه الخصائص في مصر، لكنهم لم يصلوا إلى نتيجة حاسمة.

نضيف إلى ذلك أن أسلوب الترحل وسكنى الخيام الذي عرفه الغجر، وظل يصاحبهم عبر أحقاب الزمن، عرفته جماعات أخرى غير الغجر أخصها العربان، مما هيأ الفرصة للغجر أو بعضهم، لأن يدعوا الانتساب إلى العروبة، مما كان يفضي في أحيان كثيرة إلى حجب الصفة الغجرية عنهم.

عند انعكاس هذا كله على الغجر تأثر كلامهم - الذي نعرفه باسم السيم - على نحو واضح - وإن كان متفاوتا - باللغة العربية، مما أدى إلى التباعد بين لغة الغجر (أو لغاتهم) في مصر وبين لغة الغجر (أو لغاتهم) في أوروبا. واللغة التي تتحدث بها جماعة الغجر، هي وحدها - دون لغة النور أو لغة الحلب - أقرب لغات الغجر المصريين إلى الرومنية، وهي لغة الغجر الأوربيين[٥].

---

٤ خيال الظل ٢٢٥-٢٢٩ وانظر ما ورد عند باول كاله في مقال له بالمجلة الآسيوية
Paul Kahle, The Arabic Shadow-Play in Egypt. *JRAS* 1940:27.

٥ Sampson: Op.cit., 85-88 & Newbold: Op.cit., 296-299.